عناية العرب والمسلمين

بطب الأطفال قبل الغرب بقرون وأجيال

محمد بن أحمد رفيق

شبكة الألوكة
www.alukah.net

عناية العرب والمسلمين بطب الأطفال

قبل الغرب بقرون وأجيال

بقلم

محمد بن أحمد رفيق

الحمد لله الذي جمع العلوم كلها في كتابه، وعلى لسان خاتم رسله وأنبيائه، محمد بن عبد الله صلى الله وسلم على آله، وصحبه وأتباعه. أما بعد:

فمما لا شك فيه عند المسلمين، أن القرآن جاء بكل ما يحتاجه الإنسان ليعيش حياة سعيدة، حيث جمع له ما يغذي به روحه، وأرشده إلى ما يغذي به جسمه، فاعتنى به عناية فائقة منذ أن يكون نطفة في رحم أمه، إلى أن يولد، ويترعرع، وينمو، ويصير طفلا، فصبيا، فغلاما، فشابا يافعا، فرجلا، فشيخا، إلى أن يموت.

وبعد موته، فرض الله تعالى على المسلمين ـ فرض كفاية ـ أن يقوموا بتغسيله وتنظيفه، وتكفينه، والصلاة عليه، ودفن جثته في الأرض لكي لا يتعرض للفساد.

ونصوص القرآن والأحاديث الصحيحة في هذا الموضوع كثيرة، وإنما الذي يهمنا في هذا المقال القصير، هو ليعرف الباحث، أن هذا

النوع من الطب الخاص بالأطفال قد عرفه العرب والمسلمون بأزمنة طويلة، وأجيال كثيرة، قبل أن يعرفه الغرب: الأوروبيون.

لائحة أسماءِ بعض مَن كَتَب في علم الطب من المسلمين

يُعتبر العرب عموما والمسلمون خصوصا، ممن لهم يدٌ طولى في في البحث والتأليف في الطب، قبل الأروبيين بقرابة ستة قرون. والدليل على ذلك، ما سأذكره هنا، في هذه اللائحة:

أولهم: الإمام علي الرضا ـ المتوفى سنة: 818م ـ فقد أفرد رسالة في حفظ الصحة، وهي رسالة وضعها بناءً على طلب من المأمون العباسي.

الثاني: الفقيه الحجة الأديب البغوي عبد الملك بن حبيب الأندلسي السلمي، المتوفي سنة (853م)، وكتابه «**مختصر في**

الطب» مطبوع بتحقيق وشرح الدكتور البار، طبع دار القلم دمشق، والدار الشامية بيروت.

الثالث: ابن أبي عاصم المتوفى (1270م)، له كتاب في الطب، سماه: «الطب والأمراض».

الرابع: أبو نعيم الأصبهاني، المتوفى (1038م) له كتاب في «الطب النبوي».

الخامس: الموفَّق عبد اللطيف البغدادي . (المتوفى: 1231م): «شرح أربعين حديثاً من سنن ابن ماجه» سمّاها: «الأربعين الطبيّة».

السادس: ابن طرخان الحموي (المتوفى:1321م) له كتاب: «القانون في أمراض العيون». وكتاب: «الأحكام النبوية في الصناعة الطبية» شرح فيه أربعين حديثاً مما اتفق عليه الشيخان من الأحاديث الواردة في الطب، وهو مطبوع بمصر.

السابع: الإمام ابن قيم الجوزية . المتوفى: 1350م . له كتاب «الطب النبوي». وأغلبه منقول من كتابه: «زاد المعاد».

الثامن: الإمام الذهبي . المتوفى: 1348م . له كتاب في «الطب النبوي». طُبع في القاهرة /مطبعة الحلبي.

التاسع: الإمام السيوطي . المتوفى: 1505م . له كتاب في الطب سماه «المنهج السوي، والمنهل الروي في الطب النبوي»، بتحقيق الأهدل طبع دار أسامة.

ونكتفي بهذا القدر في ذكر بعض أسماء من ألف في «الطب» عموما، وإلا فكتب الإسلام مليئة بهذا العلم، إذ يعتبر جزءا من العلوم الكفائية التي يجب على طائفة من العلماء أن يهتموا به، وإلا أثموا.

أمثلة من القرآن والسنة في طب الأطفال

الاهتمام بالرضاعة للطفل:

قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: 233]. أجمع العلماء المسلمون على أن حليبَ الأم أفضل أنواع الحليب للطفل، ووضعوا الشروط الصحية المفيدة للإرضاع. ونصحوا بدوام الرضاع مدة سنتين، وأن يكون الفطام تدريجياً، وهذا ما قرره الطب الحديث. وحذّروا من الفطام في فصل الحر الشديد، أو البرد الشديد.

علاج الوَرَم الذي يهيج في الحلق عند بعض الأطفال:

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لاَ تُعَذِّبُوا صِبْيَانَكُمْ بِالْغَمْزِ مِنَ العُذْرَةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالقُسْطِ».[1]

وعن أم قيس، قالت: دخلتُ بابنٍ لي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أعلقتُ عليه من العُذْرة، فقال: «عَلَى مَا تَدْغَرْنَ

[1] صحيح البخاري: حديث رقم 5696 كتاب الطب / باب الحجامة من الداء.

أَوْلاَدَكُنَّ بِهَذَا العِلاَقِ، عَلَيْكُنَّ بِهَذَا العُودِ الهِنْدِيِّ، فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ، مِنْهَا ذَاتُ الجَنْبِ: يُسْعَطُ مِنَ العُذْرَةِ، وَيُلَدُّ مِنْ ذَاتِ الجَنْبِ».[2]

وعن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة، وعندها صبي يسيل منخراه دما، فقال: «ما هذا؟» . فقالوا: به العذرة، أو وجع في رأسه، فقال: «ويلكن لا تقتلن أولادكن، أيما امرأة أصاب ولدها عذرة أو وجع في رأسه، فلتأخذ قسطا هنديا فلتحكه بماء، ثم تسعطه إياه» فأمرت عائشة رضي الله عنها فصنع ذلك بالصبي، فبرأ.[3]

قال الحافظ ابن حجر: «عُذرة الصبي، وهو ورم في حلقه، ترفعه أمُّه، أو غيرها بإصبعها».[4]

---

[2] صحيح البخاري: حديث رقم 5713 كتاب الطب/ باب اللَّدود.

[3] مسند أحمد / طبعة الرسالة (22/ 282)

[4] فتح الباري لابن حجر (1/ 159).

لائحة بعض أسماء مَن بحث وكتَب في طب الأطفال عند العرب والمسلمين

أولا: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (865 م - 925 م).

يتفق المؤرخون على أن هذا العالِم هو أول من فصل بين طب الأطفال والأمراض النسائية، وجعله يأخذ شكلاً مستقلاً بذاته عندما ألف كتابا بعنوان: «**تدبير الصبيان**» في حدود سنة 900 م، ويعتبر هذا الكتاب وثيقة هامة في تاريخ طب الأطفال وتطويره، ليس لكونه أول مؤلف في طب الأطفال يؤلف على شكل مستقل فحسب، بل لأنه يبين بوضوح المستوى الرفيع الذي كان قد وصله هذا العِلم عند الأطباء العرب، إن هذه الرسالة لا توجد منها أية نسخة باللغة العربية لحد الآن . وقد تُرجمت هذه الرسالة للاتينية قبل ظهور الطباعة في مدرسة جيرارد من كريمونا (1114 .1187م) Gerardus Cremonensi : إلاّ أنها نسبت إليه .كما ترجمت إلى العبرية .ومن

الحقائق الأكيدة أن جميع كُتب الأطفال التي أُلِّفت في أوربا حتى القرن السابع عشر، سارت على غرار النسخة اللاتينية لرسالة الرازي.

ثم قام «**رادبل**» بترجمة الكتاب للإنجليزية، وهي أول وأكمل ترجمة لرسالة الرازي في طب الأطفال، ونشرها في مجلة «طب الأطفال الأمريكية سنة 1971م». وقد ترجمت إلى اللغة العربية مؤخرا ضمن ثلاث رسائل في الطب العربي الإسلامي. حققها واعتنى بها: الدكتور محمود الحاج قاسم . طبيب أطفال. وباحث في تاريخ الطب العربي الإسلامي. طبع الكتاب بدار بيت الحكمة – بغداد 2001م.

ثانيا: أحمد بن محمد الطبري: له كتاب مشهور بعنوان: «المعالجات البقراطية» عِلَلُ الأطفال وتدبيرهم حين يولدون، وآداب المرضعة و تدبيرها، و خصّص لذلك ستين بابا. لا نعرف تاريخ ولادته أو وفاته

بالضبط، إلّا أنه كان أحد أطباء ركن الدولة البويهي (933- 976 م).

ثالثا: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار القيرواني: (كانت ولادته 895 م) و وفاته عام (979م أو 987 م) له كتاب في طبّ الأطفال، بعنوان: (**سياسة الصبيان و تدبيرهم**). وله كتاب آخر بعنوان: «**زاد المسافر وقوت الحاضر**». تقول الكاتبة حليمة الغراري عن قيمة الكتاب: «وهو أشهر كتب ابن الجزار في الطب، ترجمه قسطنطين الإفريقي إلى اللاتينية، كما ترجم إلى اليونانية والعبرية. وقد كانت للكتاب شهرة واسعة بين أطباء القرون الوسطى، وظل يدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر. وتوجد نسخ مخطوطة من هذا الكتاب في عدد من المكتبات عبر العالم».[5]

---

[5] بناة الفكر العلمي في الحضارة الإسلامية/ تأليف: حليمة الغراري: صفحة:15

رابعا: أحمد بن محمد بن يحيى البلَدي العراقي (توفي سنة: 990م). ألَّف كتابا بعنوان: «**تدبير الحبالى والأطفال والصبيان، وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم**». طبع هذا الكتاب في نهاية سنة الطفل العالمي 1979م.

خامسا: أبو علي الحسين بن عبد اللّه بن سينا (980م-1032م) ألّف كتابه (**القانون في الطب**) وخصّص في الجزء الأول قسما لتربية الأطفال، وسماه (**التعليم الأول في التربية**) وهو أربعة فصول، كما و يحتوى الكتاب على مواضيع متفرقة لها علاقة بالأطفال.

انتشار الطب في أروبا في أواسط القرن العاشر

يقول الدكتور توفيق: «جاء أول تأثير للطب العربي في أوروبا في أواسط القرن العاشر في مدرسة سالرنو . Salerno ، وموطن أبقراط أبي الطب اليوناني القديم. ومن الطريف أن الطب العربي قد عرف طريقه إلى هذه المدرسة عن طريق تاجر عربي من قرطاجة . بتونس . درس الطب العربي. وجمع كثيرا من مخطوطاته وأبحر بها إلى جنوبي إيطاليا واستقر في سالرنو . Salerno بعد أن غرقت بعض مخطوطاته في عاصفة هاجمته أثناء رحلته، وأسمى نفسه «قسطنطين الإفريقي» 1087م. واعتكف عام 1056 م في دير وانهمك في ترجمة مخطوطاته الطبية من العربية إلى اللاتينية–لغة أوروبا العلمية إذ ذاك، فكانت ترجماته نواة مدرسة سالرنو . Salerno وتخصصها في الطب، وعلى طريق ذلك الرائد سار تلميذه . يونس الفلكي . «يؤانس أفلاكيوس» 1103م. وغيره ممن حاولوا أن يمزجوا بين طب العرب

والنصوص اليونانية الرومانية المتوارثة. وانتشر خريجوا سالرنو . Salerno في أوروبا. فخف فريق منهم عام 1160م. إلى جنوبي فرنسا. واستقر كثيرون منهم في مونبلييه التي خلفت سالرنو . Salerno بفضل تحررها من سلطة الكنيسة، ونزوعها العلماني. ومنها تسلل الطب إلى باريس وغيرها من المدن الأوروبية».[6]

[6]انظر عالم المعرفة: في تراثنا العربي / الفصل الثالث: لقطات علمية من تاريخ الطب العربي: صفحة: 136 . 137 . تأليف: الدكتور توفيق الطويل.

أول مَن بحث وكتَب في طب الأطفال عند الغرب

إذا كان أول من ألف من المسلمين في طب الأطفال في القرن التاسع، فإن الغربيين لم يكتبوا إلا في القرن الخامس عشر. ومن الحقائق الأكيدة، أن جميع كتُب الأطفال التي أُلِّفت في أوربا كان مصدرها النسخة اللاتينية لرسالة الرازي.

. فأوّل كتاب مطبوع في طب الأطفال كان لمؤلّفه الإيطالي (Paolo Bagellardo) و عنوانه: (De infantium aegritudinibus) وكان هذا في سنة **1472م** واعتمد في تأليفه على النقل من رسالة الرازي.

. وفي سنة 1545م ظهَر كتاب عن طب الطفولة ورعاية الطفل، لمؤلفه (Thomas phaer) وهو نرويجي المولد (1510م-1560م). سماه: «كتاب الأطفال». و قد نقل ما سبق ولم يضف شيئا جديدا لطب الأطفال.

. وفي سنة 1569 ألّف الإيطالي (Girolamo Mercuriale 1530م . 1606 م كتابا عن الأطفال بعنوان De **morbis puerorum** . والكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات له، حين كان أستاذا للباطنية في جامعة بولونيا . [سنجر، جارلس: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب/ لمؤلفه: الدكتور محمد كامل حسين].

. وأشهر مؤلف ظهر في **القرن السابع عشر**، هو للإنجليزي (**wotler harris1732 –1647** واسم كتابه: «الأمراض الحادة في الأطفال» **De Morbis Acutis** وطبع الكتاب

ثماني طبعات، و ترجم للغات أخرى، يبحث فيه المؤلف طريقته في العلاج[7].

شهادة «Georges Sarton»

على تفوق العرب والمسلمين على الغرب في مجال الطب

إذا كان بعض الأروبيين ينكرون سبق العرب والمسلمين في علم طب الأطفال، وفي الطب عموما، فيكفي شهادة أحد كبار رجالات العلم والبحث، وهو: جورج سارتون «Georges Sarton» المستشرق البلجيكي، والذي يُعَدُّ من كبار العلماء، حتى كان رئيسًا للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم، ورئيسا شرفيًّا لجمعية تاريخ العلوم

---

[7] جارلند، جوزيف: قصة الطب- ترجمة الدكتور سعيد عبده / دار المعارف بمصر 1959م (صفحة: 83.) نقلا من: ثلاث رسائل في الطب العربي الإسلامي / للدكتور: محمود الحاج قاسم: 1/ 13 إلى 17

الأميركية، وكان عضوًا في عشرة مجامع علمية دولية، إضافةً إلى منحه ست شهادات دكتوراه فخرية!!

يقول «Sarton» . بعد أن استعرض كل الحضارات المعاصرة من اليابان والصين، حتى إنجلترا وإسكندنافيا .: «ولننتقل الآن إلى الإسلام، فكأنما انتقلنا فجأة من الظِّلِّ إلى الشمس الساطعة، ومن العالم النائم إلى عالم يعج بالحركة والطاقة والحيوية والإنتاج».[8]

ومن قال أيضاً: «إن بعض المؤرخين يحاولون أن يبخسوا ما قدمه العرب والمسلمون للعالم، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئًا، ويرد عليهم قائلاً: إن هذا الرأي خطأ جسيم؛ فقد كان العرب أعظم معلِّمين في العالم، وأنهم زادوا

[8] مقدمة ترجمة في تاريخ العلم/ sarton: ترجمة الدكتور إبراهيم مدكور: 695/1.

على العلوم التي أخذوها ولم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء».[9]

ويقسِّم « Sarton «عصور التاريخ بأسماء أبرز العلماء، وأصحاب الفضل على الحضارة الإنسانية في عصرهم:

فالنصف الثاني من القرن الثامن الميلادي يسمى: «عصر جابر بن حيان المتوفى سنة 813م. Abu Mūsā Jābir ibn Hayyān

والنصف الأول من القرن التاسع الميلادي يسمى: «عصر الخوارزمي المتوفى سنة 850م. Muhammad Ibn Mūsā al-Khuwārizmī

[9] الموجز في تاريخ الطب/ لمؤلفه: محمد كامل حسين: 1/ 244

والنصف الثاني من القرن التاسع الميلادي يسمى: «عصر الرازي المتوفى سنة 925م. Abu Bakr Mohammad Ibn Zakariya al-Razi

والنصف الأول من القرن العاشر الميلادي يسمى: «عصر المسعودي العراقي. المتوفى سنة 896م. Al-Mas'ûdî ou Al-Masudi

والنصف الثاني من القرن العاشر الميلادي يسمى: «عصر أبو الوفا البوزجاني الإيراني المتوفى سنة 998م. Muhammad Aboûl-Wafâ

والنصف الأول من القرن الحادي عشر يسمى: «عصر البيروني المتوفى سنة 1048م. Al-Bīrūnī Muḥammad ibn Aḥmad Abū al-Reḥān

والنصف الثاني من القرن الحادي عشر يسمى: «عصر الخيّام المتوفى سنة 1131م. Omar Khayyām

والنصف الأول من القرن الثاني عشر يسمى: «عصر ابن زهير الأندلسي المتوفى سنة 1162م . Abou Merwan Ibn Zuhr

والنصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي يسمى: «عصر ابن رشد المتوفى سنة 1198م . Ibn Rochd Averroès

والنصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي هو: «**عصر الترجمة من العربية إلى أوربا**».

يقول الدكتور أحمد شوقي الفنجري معلِّقًا على هذا التقسيم للعصور: «ولهذا التقسيم وهذه الأسماء مغزى كبير يجب أن لا يفوتنا؛ فمعناه أن الحضارة الإسلامية كانت في تلك العصور سيدة الدنيا بغير منافس ولا منازع، مما حدا ب» سارتون: Sarton « أن يسميها بعصور العلم الإسلامي».[10]

[10] انظر علوم المسلمين: تأليف / أحمد شوقي الفنجري / صفحة: 24.

وأخيرا، أختم بما جاء في تفسير الثعلبي (4/ 230)، قال: «بلغني أنّ الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعليّ بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان ! فقال عليّ: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.(ا.هـ).

وجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة. فعن مقدام ابن معدي كرب، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن. بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» رواه الترمذي في سننه.

وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله على نعمة القرآن والإيمان، وكفى فهما من نعمة.